استطرادٌ لذكر الزاوية العدوية

ولنرجع إلى الشيخ زين الدين وبقية أخباره، فنقول: إن الزاوية التي دفن بها بالقرافة الصغرى كانت تعرف بزاوية عدي بن مسافر[1] وبالزاوية العدوية، ثم عرفت بالزاوية القادرية لسكنى جماعة من ذرية سيدي عبد القادر الجيلي بها وتولِّيهم شئونها والنظر على أوقافها، وتعرف الآن عند العامة بجامع سيدي عُليٍّ، وقد ذكرها المقريزي في خططه باسم الزاوية العدوية، وقال: إنها بالقرافة تنسب إلى الشيخ عدي بن مسافر، ولم يتكلم عليها، وإنما ذكر ترجمة الشيخ عدي وخبر زين الدين وعز الدين أميران، وذكرها السخاوي في الضوء اللامع عرضًا في ترجمة بدر الدين حسن بن محمد بن عبد القادر القادري، فقال: «كان أسنَّ الجماعة المقيمين بزاوية عدي بن مسافر خارج باب القرافة الصغرى المشهورة الآن بزاوية القادرية.» وذكرها أيضًا باختصار في عدة مواضع من هذا الكتاب سيأتي بيانها، وذكرها علي مبارك باشا في خططه باسم «جامع القادرية»، غير أنه جعلها: «داخل باب القرافة بالقرب من مسجد السيدة عائشة النبوية رضي الله عنها.»، وهو وَهْمٌ بيِّنٌ سببه السهو فيما يظهر.

ولم تزل هذه الزاوية باقية إلى الآن خارج باب القرافة عن يمين السالك منه في شارع القادرية المسمى باسمها، والموصل إلى قرافة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبها

---

[1] تقدم في ترجمة الشيخ عدي أنه مدفون بالهكَّارية من بلاد الموصل، وإنما نسبت هذه الزاوية إليه لنزول قريبه زين الدين وطائفة من أتباعه بها، وقد صرح بذلك السخاوي في كلامه على تربة زين الدين المذكور في تحفة الأحباب، فقال: «إن الشيخ عدي بن مسافر لم يكن بمصر ولا بالقرافة، بل هذه الذرية من أولاد أخيه صخر والشيخ عدي يعرف بالأعزب.»

أربعة إيوانات في ثلاثة منها قبور سيأتي الكلام عليها، وبالركن الجنوبي الغربي قبة بها ضريح الشيخ زين الدين يوسف المذكور، والعامة تسميه بسيدي «عُلَيٍّ» بالتصغير، والظاهر أنه محرف عن «عدي» بن مسافر، فإن بعض المتقدمين كان يعتقد أن هذا الضريح ضريحه بسبب نسبة الزاوية قديمًا إليه، وسماه علي مبارك باشا في خططه «عُليًّا القادري» تبعًا للعامة؛ لأنهم ينعتونه بهذه النسبة على توهُّم أن الزاوية سميت بالقادرية نسبة إليه، وكان على علي باشا أن يبيِّن خطأهم في ذلك؛ تمييزًا للصحيح من المزاعم من غير الصحيح، وتلقبه العامة أيضًا بقاضي الحقيقة، وتقيم له مولدًا كل سنة في شعبان، وكانت تقيم له «حضرة» كل أسبوع ثم أبطلت الآن، وقد رمَّمت لجنة حفظ الآثار العربية هذه الزاوية، وأعادت الباقي منها إلى ما كان عليه، وكان في شرقيِّها مصلًّى ومئذنة وأماكن أخرى ملحقة بها، زالت الآن ولم يبق منها غير باب قديم بقي منفصلًا عن البناء مطلًّا على شارع القادرية، وبينه وبين الزاوية ساحة كانت بها هذه الأماكن، وقد أحيط الجميع بسور قصير حديث البناء عليه درابزين من الحديد.

وهذا مصوَّرها نقلناه من مجموعة هذه اللجنة بعد أن رقمنا أماكنها بأرقام لبيانها:

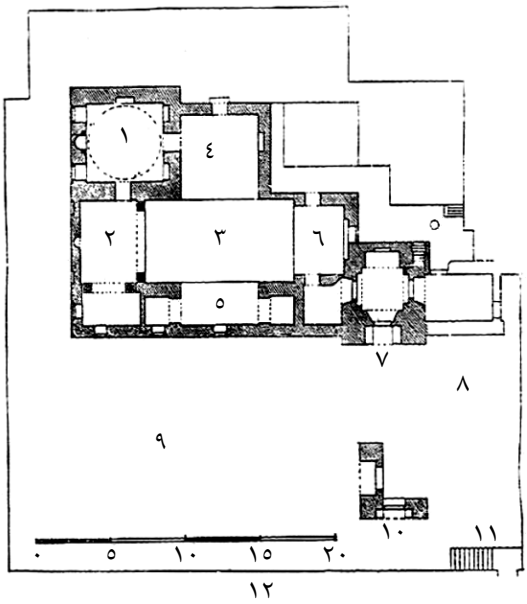

وهذا إيضاح ما تدلُّ عليه هذه الأرقام:

(١) القبة وبابها من الإيوان الجنوبي، ويحيط بهذا الباب من الخارج في وجهته وعضادتيه إطار من الرخام منقوش بآيات كريمة، وفي جانبيه تحت العتب عن يمين الداخل منقوش: «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، لا إله إلا الله سيدي عدي ولي الله.» وعن يساره: «سيدي عدي الوسيلة إلى الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلَّم.» وبعض كلمات أخرى ذهبت من كلا الجانبين، وفوق هذا الباب من خارجه لوح منقوش فيه بالحفر: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. هذا مقام السيد الإمام القدوة شيخ شيوخ الإسلام، شيخ الطريقة ومعدن الحقيقة، فريد عصره شرفتْ بأقدامه مصرُ، أوحد شيوخ المسلمين، زين الدين يوسف بن الشيخ محمد بن الحسن بن الشيخ عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر الأموي، نفع الله ببركاته المسلمين، وذلك في ربيع الأول سنة خمس وعشرين وسبعمائة.»[٢] وبحائط القبة من الأسفل إفريز بديع من قطع الرخام الملوَّن، وبوسطها الضريح وعليه تابوت من الخشب مكسوٌّ بِسترٍ أخضر مطرز بالحمرة والبياض، ومكتوب عليه بالتطريز الأبيض «مقام سيدي عُلَي بن عبد القادر الكيلاني» على ما هو معروف به عند العامة، وبأعلى القبة من الداخل طراز به كتابة بالقلم الجلي تتعذر قراءتها لارتفاعها، وكان على الضريح تابوت تاريخي من الخشب المصدَّف، بديع النقش منقوش به نسب الشيخ وتاريخ وفاته، احترق في الحريق الذي وقع بالقبة سنة ١٣٢٥، ولكن كان من حسنات الأستاذ يوسف أحمد[٣] على الآثار أنه نقل هذه الكتابة قبل الحريق، وهذا نصها: «هذا ضريح السيد الإمام العالم العارف الشيخ زين الدين يوسف بن السيد الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الشيخ شمس الدين الحسن بن السيد الإمام الشيخ شرف الدين

[٢] هو تاريخ عمارة القبة الذي ذكره السخاوي في تحفة الأحباب بقوله: «وبناء هذه التربة والقبة التي على ضريحه من أعاجيب البناء، ووافق الفراغ من العمارة في ربيع الأول سنة خمس عشرة وسبعمائة.» ولا ريب في أنه تحريف في نسخة تحفة الأحباب التي بأيدينا، فإنها كثيرة الأغلاط، والصواب: «سنة خمس وعشرين وسبعمائة»، كما نقش على الباب، وهو تاريخ عمارة بالقبة، لا تاريخ بنائها؛ فإنها بنيت سنة وفاة الشيخ زين الدين، أي سنة ٦٩٧ كما سيأتي منقولًا عن المنقوش على باب الزاوية.

[٣] هو البحَّاثة المحقق أحد المراقبين بلجنة حفظ الآثار العربية بمصر، وله تآليف تشهد له بالدقة وسعة الاطلاع.

عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأمويُّ، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه، انتقل إلى رحمة الله يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، سنة سبع وتسعين [و] ستمائة.

ذنوبي غزار لا أطيق لحصرها وعفوك يا مولاي أوفا[٤] وأزيد
وما هي ذنوبي أن أخاف وأنت لي إلهًا[٥] ولي يوم الشفاعة أحمد»

انتهى. ولهذه القبة نافذتان في الحائط الجنوبيِّ نقش على إحداهما من الخارج البيت الأول من هذين البيتين، وعلى الثانية البيت الثاني، ولكن برسم «أوفى» بالياء و«إله» بالرفع.

(٢) الإيوان الجنوبي، وبه قبلة وقبر يقع شرقي باب القبة، قيل لنا: إنه قبر السيد محمد الواقف، لقِّب بذلك لوقفه أوقافًا على الزاوية على ما يزعمون، والغالب على الظن أنه القبر الذي قال عنه السخاوي في تحفة الأحباب، في كلامه على تربة زين الدين المذكور: «وبهذه التربة قبر بإيوان شرقي باب القبة، به الشيخ الصالح العارف بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد العدوي، أحد خلفاء الشيخ الصالح زين الدين أبي المحاسن يوسف، توفي في ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.»

(٣) صحن الزاوية الذي بين الإيوانات وهو غير مسقوف.

(٤) الإيوان الغربي، وبه قبران أحدهما قيل لنا إنه قبر الشيخ حسنين الغمري، والثاني قديم عليه تابوت من خشب منقوش فيه اسم المدفون به وتاريخ وفاته وهو أحد القادرية، وسيأتي الكلام عليه.

(٥) الإيوان الشرقي وبه قبران، قيل لنا إن أحدهما قبر الشيخ علي القشلان، وإنه دفن فيه من نحو خمس وأربعين سنة.

(٦) الإيوان الشمالي، وليس به شيء، وبدائر هذه الإيوانات الأربعة على ارتفاع قامة سورةُ يس مكتوبة بالجصِّ بحروف بارزة في سطر عريض به نقوش غاية في الإبداع، غير أنها غير تامَّة.

---

[٤] كذا بالألف في آخره.

[٥] كذا بالنصب.

(٧) باب الزاوية، وعلى وجهته لوح من الرخام مكتوب فيه بالحفر نسب الشيخ زين الدين وتاريخ وفاته وبناء القبة، وهذا نصُّ ما فيه على ما قرأه الأستاذ يوسف أحمد: «أنشأ هذه القبة المباركة على ضريح السيد الإمام العالم العارف المحقق، إمام الموحدين تاج العارفين زين العابدين أبي الشمائل، الشيخ زين الدين يوسف بن السيد الإمام العالم العارف القدوة شرف الإسلام غوث الأنام، الشيخ شرف الدين محمد بن السيد الإمام العالم العارف، شيخ الحقيقة ناصر السنَّة قامع البدعة ... أبي محمد شمس الدين الشيخ حسن بن السيد الإمام العالم العارف علم الأبرار غوث العباد تاج الزهَّاد، شيخ شيوخ الإسلام أبي الحسن شرف الدين عدي، ابن السيد الإمام العالم العارف الشيخ أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل بن موسى ابن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه، وكان انتقاله إلى دار الخلود وجوار الملك الودود في ثاني ساعة من نهار يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول، سنة سبع وتسعين وستمائة، ومما أنشده في حال عبوره:

ذنوبي غزار لا أطيق لحصرها وعفوك يا مولاي أوفى وأزيد
وما هي ذنوبي أن أخاف وأنت لي إله ولي يوم الشفاعة أحمد

وكان فراغ القبة في شهر شوال سنة سبع وتسعين وستمائة.» انتهى.

(٨) جزء من الساحة كان به المصلَّى وبشماليه كانت المئذنة.

(٩) جزء من الساحة كان به الميضأة والبئر وبيوت الخلاء.

(١٠) الباب المنفصل عن الزاوية الآن، وهو مطلٌّ على شارع القادرية، وبأعلى وجهته لوح من الرخام به نسب الشيخ زين الدين يوسف صاحب الضريح، ولكن به بعض اختلاف في الأسماء القديمة، مع إيصاله بعد مروان إلى يزيد بن معاوية، وبه اختلاف أيضًا في تاريخ الوفاة بيوم واحد، فإنها فيه يوم الاثنين رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٩٧، وفيه بعد ذلك أن الابتداء في هذا الباب كان سنة ٧٣٦، والظاهر أن هذا الباب وما كان متصلًا به من الأماكن زيادات حادثة أضيفت إلى الزاوية بعد بنائها، وما وقع من الاختلاف في النسب المنقوش عليه، فالظاهر أنه من تخليط بعض من كان يذهب إلى اتصال نسب الشيخ بيزيد. والله أعلم.

(١١) سلم حديث ينزل منه إلى الزاوية؛ لأنها أصبحت منحطة عن أرض الطريق.

(١٢) شارع القادرية، وهو شرقي الزاوية يفصلها عنه جزء من السور القصير الحديث الذي عليه الدرابزين.

ثم اعلم أن جماعة القادرية الذين نزحوا إلى مصر ونزلوا بهذه الزاوية وتولَّوا شئونها والنظر على أوقافها، كان من عادتهم دفن موتاهم فيها، كما رأيناه في تراجم من وقفنا على تراجمهم منهم، وتلك القبور التي بالإيوانات ليست إلا من بقايا قبورهم، ولكنها جهلت بذهاب ما كان مكتوبًا عليها أو باشتهارها بمن دفن من غيرهم فيها، ولم يبق من قبورهم معروفًا إلا قبر واحد، وهو أحد القبرين اللذين بالإيوان الغربي، فإن الشمالي منهما مشهور بالشيخ حسنين الغمري، والله أعلم بصحته، والجنوبي عليه تابوت من الخشب مكتوب عليه بالحفر ما نصه، مع المحافظة على رسم الكلمات: «توفَّا العبد الفقير إلى الله تعالى السيد محمد بن الشيخ علي بن الشيخ حسين بن السيد شمس الدين محمد بن الشيخ حسام الدين شرشيق بن الشيخ عبد العزيز بن السيد الحسيب النسيب ... الفرد الحاج محيي الدين عبد القادر الكيلاني الحسني، توفَّا ليلة السبت سنة أربع وأربعين وثمانمائة.» هكذا رأيته منقوشًا على التابوت، وفي الدرر الكامنة في ترجمة محمد بن شرشيق زيادة «محمد» بين شرشيق وعبد العزيز.

ولم يذكر السخاوي في تحفة الأحباب أسماء مَن دفن من القادرية بهذه الزاوية، وإنما أشار إليهم بقوله: «وبها قبور السادة الأشراف من أولاد علم الأولياء الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، نفع الله تعالى ببركتهم.» ولكنه ذكر ذلك في تراجم من ترجمهم منهم بالضوء اللامع، وقد استطعنا معرفة ستة منهم، وهم:

الأوَّل: محمد بن علي بن حسين بن محمد الأكحل بن شرشيق القادري، قال: إنه توفي بالطاعون سنة ٨٤٠ ودفن بزاوية عدي بن مسافر، بالقرب من باب القرافة، ويظهر من اسمه ونسبه أنه صاحب القبر الباقي معروفًا من قبورهم بالإيوان الغربي، لولا الاختلاف في الوفاة بين سنة ٨٤٠ و٨٤٤ فليحقق، وأما جدُّه محمد بن شرشيق فله ترجمة في الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر، جاء بها أنه ولد سنة ٦٥١ وحدَّث بدمشق وبغداد والحيال (بالحاء المهملة والياء، آخر الحروف بلدة بسنجار) وتوفي سنة ٧٣٩، ولم يذكر أنه قدم إلى مصر، فالظاهر أن أوَّل القادمين إليها أحد أولاده أو حَفَدته، ثم قال الحافظ: وأولاده الحسام عبد العزيز والبدر حسن والعز حسين والظهير أحمد، ولكنه لم يترجم لأحدٍ منهم. وله ترجمة في المنهل الصافي لابن تغرى بردى قال فيها إن له أيضًا أولادًا آخرين.

الثاني: ابنه موسى بن محمد بن علي بن حسين بن محمد بن شرشيق، قال إنه توفي بالطاعون سنة ٨٤١ بعد أبيه بيسير جدًّا، ودفن بزاوية عدي بن مسافر بالقرب من باب القرافة.

الثالث: ابن هذا، زين العابدين محمد بن موسى بن محمد بن علي شيخ الطائفة القادرية، قال إنه مات سنة ٨٥٥ بعد تعلُّل مدة طويلة، وصُلي عليه بمصلى المؤمني في محفل شهده أمير المؤمنين لصداقة كانت بينهما، ثم رجعوا به إلى زاوية عدي بن مسافر محل سكناه من باب القرافة، فدفن عند أبيه وجده، وذكر بعده أخاه شمس الدين محمد بن موسى بن محمد، وقال إنه استقر بعده شيخًا شركة لابن عمهما ومات سنة ٨٨٨، ولكنه لم يذكر أنه دفن معهم بهذه الزاوية.

الرابع: حسن بن محمد بن عبد القادر بن علي بن محمد الأكحل بن شرشيق القادري، قال عنه: كان أسنَّ الجماعة المقيمين بهذه الزاوية، توفي سنة ٨٦٧ ودفن بها.

الخامس: أخوه علي بن محمد بن عبد القادر شيخ القادرية، قال إنه توفي سنة ٨٥٣، دفن بمحل سكنه بالتربة المعروفة بعدي بن مسافر من القرافة الصغرى، وترجمه أيضًا في وَفيات هذه السنة من التبر المسبوك، وقال إنه دفن بهذه التربة وكانت محل سكنه.

السادس: ابن هذا عبد القادر بن علي بن محمد بن عبد القادر بن علي بن محمد بن شرشيق، قال إنه توفي سنة ٨٧٩، ودفن بزاوية عدي بن مسافر محل سكن بني عمِّه من القرافة.

هؤلاء مَن استطعنا معرفتهم، وقد يكون ذكر غيرهم ففاتنا تقييدهم، وقد بقي نظر هذه الزاوية بيد هذه السلالة إلى عهد قريب، حتى شرعت لجنة حفظ الآثار العربية في ترميمها بعد الحريق الذي وقع بالقبة، فأضيف نظرها إلى ديوان الأوقاف، وبالزاوية الآن عجوز من الصالحات تزعم أنها من بقايا هؤلاء القادريين، تقوم بخدمتها وتنظيفها هي وابنتها، وهو المقيد بهذه الخدمة في ديوان الأوقاف، ويسكنان في دُوَيْرةٍ ملحقةٍ بالزاوية.

وقد أطلنا بهذا الاستطراد، حيث لم نجد بدًّا من الإطالة؛ لأنا لم نر مَن حقق أمر هذه الزاوية بمثل هذا التفصيل.

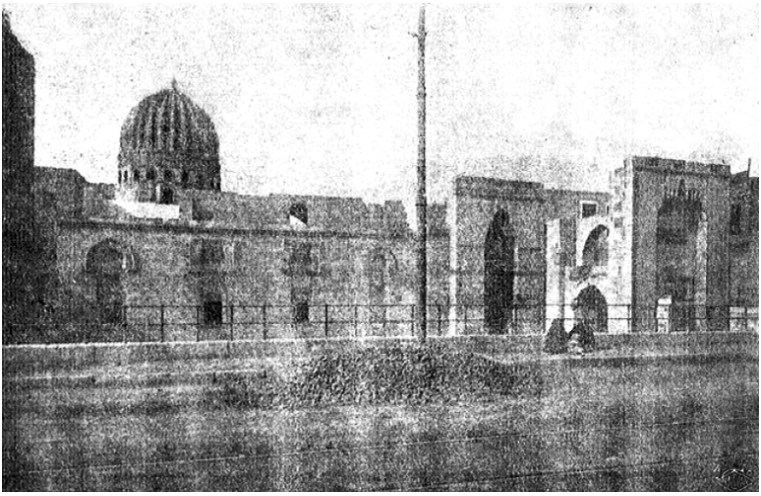

صورة الزاوية بعد الترميم، والباب الذي عليه الرقم «١٠» هو الباب المنفصل عن البناء.